مجدّدو المذهب
وسماتهم البارزة

بمناسبة مرور قرن على وفاة مجدّد
القرن الرابع عشر الهجرى
السيّد محمد رضا الحسينى

بسم الله الرحمن الرحيم
إن تكريم العظماء الذين صنعوا تاريخ الأمة هو من الواجبات الثقافية الهامة ، حيث تترتب عليه أمور حيوية مثل : استلهام العزم والقوة ، ورسم الخطط الصالحة للنجاح فى الحياة ، وللدلالة على إمكانية التغلب على المشاكل والعراقيل ، وتجاوز العقبات التى تعترض طريق التقدم الحضارى ، والتزود من سيرة الماضين « أملا » بازدهار المستقبل.
وقد تميز بين عظماء تاريخنا المجيد ، أولئک الذين تكللت شاراتهم بوسام » التجديد » فى رأس كل من القرون الخمسة عشر التى عاشتها الأمة الإسلامية.
ومهما كان لخبر التجديد فى الحديث الشريف ، من بحوث وشؤون ، فإن الحقيقة الملموسة هى أن كل قرن قد تميزت بداياته بتلألؤ نجم لامع من نجوم الأمة ، واهتزاز علم رفيع من أعلامها ، وبروز شخصية نابغة بين شخصياتها .
فقد شهدت نهاية القرن الأول ، وبداية القرن الثانى طلوع شمس العلم والمعرفة فى المدينة ، فتجددت حياة الدين والأمة على يد الإمام أبى جعفر محمد بن على ابن الحسين بن على بن أبى طالب ، الباقر عليه السلام ، حيث رفع راية العلم ونشرها

خفاقة على ربوع العالم الإسلامى ، من خلال مدرسته التى أقامها فى عاصمة الإسلام وقطب رحاه « مدينة الرسول » فبقر العلم ، حتى سمى باقر العلوم ، وشق عباب المعارف الزخارة وأروى الأمة من معين علومه ، بعد جفاف وقنوط طال أكثر من ستين عاما ، حيث عمدت أيدى العصبة الأموية ، وشراذمة الجاهلية ، إلى إبادة كل معالم الحضارة الإسلامية من علم وأدب ورجال ونضال .
فأقام الإمام الباقر عليه السلام الصرح العلمى لمدرسة تربت فيها أجيال من العلماء ، وازدهرت على يد ولده الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ، ومن أوضح معالمها أربعة آلاف عالم وداعية للإسلام ، وأربعمائة « أصل » من مصادر الشريعة الإسلامية .

وعلى رأس القرن الثالث (سنه ٢٠٠ : (

طلع نجم الإمام الرضا على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب عليهم السلام ، فكان الحجة القائمة فى العالم الإسلامى ، حيث ملأته سناءا ونورا ، وأعادت للإسلام قوته وصلابته ، بعد أن كادت الفلسفات التى استوردها الخلفاء العباسيون ، تهدد قواعد الدين فى نفوس الأمة ، وتنخر أسسه التى ضعفت وضاعت بين ظلم الحكام ولهوهم وزهوهم ، وبين الانحراف الذى عم البلاد والعباد ، حيث يكونون على دين ملوكهم.

فكان الإمام الرضا عليه السلام ـ بحضوره ومواقفه الخالدة منجدا للحق معيدا له إلى نصابه .

وعند ما كادت الحياة المترفة العباسية تقضى على ما لهذا الدين من بهاء وجلال وهيبة فى النفوس ، وتشكك الناس فى كثير من الواقعيات ! ؟ كان الإمام وسيرته المعتمدة على الزهد والتقى يعيد إلى المسلمين الثقة بحقيقة الإسلام ، ويجسد لهم كل تلك الواقعيات .

على معالم الفكر وتخمد إشعاع العلم والاجتهاد ، فكانت محاولات الإمام الرضا عليه السلام فتحا لآفاق التطلع العلمى لدى العلماء ، وكسرا لسد شبهات أولئک البلهاء ، فلذلک كان ظهور الإمام عليه السلام تجديدا عينيا لهذا الدين.

وفى مطلع القرن الرابع :

حيث ألجئت الإمامة إلى الأستتار وراء حجب الغيبة ، كان وجود الشيخ أبى جعفر ، محمد بن يعقوب ، الكلينى الرازى ، مجددا للدين ، حيث عمد إلى تحديد النصوص الدالة على أصول المذهب وفروعه ، فجمعها فى كتابه العظيم « الكافى » فحفظ به التراث الإمامى بأكمل شكل ، فى أخطر أدواره ، عندما تعرض لأعقد مشاكله صعوبة ، وأضنک مراحله فترة وزمانا .

ودخل القرن الخامس:

وقد بدأت الحملات الطائفية على المذهب الإمامى وسعى الحكام المغرضون للاستفادة من الخلافات المثارة ، فى صالح كراسيهم المهزوزة.

فكان لمواقف شيخ الطائفة وعماد الملة ، وزعيم الأمة ، المعلم العظيم ، الشيخ المفيد ، محمد بن محمد بن النعمان ، ابن المعلم العكبرى ، البغدادى ، أثرها الخالد فى تثبيت القواعد الرصينة ، لأصول المذهب القويمة ، وتحصينها ضد تلک الحملات الطائشة ، وإبراز أدلتها وحججها ، وتزييف دعاوى المعارضين ، بشكل كان له على كل الأمة منة ، واستحق اسم التجديد بجدارة .

وأشرف القرن السادس على الأمة :

وقد اشتدت الحملات الطائفية الطائشة ، بكل ضراوة ، واستهدفت الشيعة فى الشرق والغرب ، وتمكنت من القضاء على معالم أثرية لهذه الطائفة ، فحرقت مكتبات ، وهدمت مدارس وقتل أعداد من المسلمين المنتمين إلى هذا المذهب .

فكانت الزعامة الدينية متمحورة على ابن شيخ الطائفة ، وهو الفقيه المحدث الشيخ ، الحسن بن محمد بن الحسن الطوسى ، أبو على ، الملقب بـ(المفيد الثانى. (
فحمل الأمانة بصدق وجد ، فحافظ على الثقافة العلمية من أن تتعرض لها الحملات ، وخرج من مدرسته العشرات من التلامذة ، الذين كانوا سندا للطائفة فى حضارتها الثقافية ، وأساسا تبنى عليها مستقبلها المجيد.

وجاء القرن السابع :
والمأساة الطائفية قد فشلت فى إدخال اليأس فى قلوب الأمة ، فعادت الأمة تستجمع قواها ، وتستعيد حيويتها ، فكانت الجهود تبذل من أجل إحياء المذهب فى مدرسة الحلة على يد أعلام من علمائها ومنهم آل طاوس ، وآل المحقق ، وآل المطهر ، ومدرسة الرى على يد أعلام من علمائها ومنهم آل بابويه ، وقد تسنم الفقيه سديد الدين محمود الحمصى الرازى القمة فى زعامة الطائفة فى بداية هذا القرن .

واستهل القرن الثامن :
وقد نبغ العلامة على الإطلاق ، الذى طبق صيته الآفاق ، وتزعم الحركة التجديدية لمعالم الدين فى العقيدة والشريعة ، فأحيى المدارس وجدد المعاهد ، ودعم المذهب ، بإبراز معالمه حتى انتشر واشتهر ، واقتنع من عرفه بأحقيته ، وصحته ، ودخل قلوب كثير من الملوك والأمراء والوجهاء ، حتى عم .
وأهم إنجاز لهذا المجدد العظيم أنه اخترق عائلة المغول الذين داهموا البلاد الإسلامية ، فأسلم حاكمهم على يد العلامة الحلى ، وبذلك أخفقت نوايا الغزاة وانصهروا فى بوتقة القوة الإسلامية .

وفى مطلع القرن التاسع :
توحدت القيادة للشيخ الأجل ، الفقيه الأعظم الشيخ شرف الدين

أبى عبد الله ، المقداد بن عبد الله ، السيورى الحلى الأسدى ، فأرسى قواعد المذهب فى الأصول والفروع على شواطئ الأمان .

ومع حلول القرن العاشر :
كانت الزعامة منقادة للمجدد العظيم ، الشيخ على بن عبد العالى الكركى العاملى ، فحمل مشعل المذهب ببطولة نادرة ، وحقق العلوم بجدارة فائقة ، وروج للحق ، وبسط نفوذه حتى دعى » بالمحقق الثانى « ومروج المذهب . «

وعندما كان القرن الحادى عشر:
كان فى مقدمة العلماء الشيخ البهائى ، بهاء الدين محمد بن الحسين بن عبد الصمد ، العاملى الحارثى ، رافعا لأعلامه ومحييا لعلومه وناصرا للحق .

وبدأ القرن الثانى عشر:

فكان العلامة المجلسى ، المولى ، الشيخ محمد باقر بن محمد تقى الأصفهانى شيخ الإسلام ، المجدد لعلومه ، والمضئ الدرب لرواده فى العقيدة والشريعة ، ولقد كان إنجازه العظيم بتأليف الحديث الشريف فى موسوعة « بحار الأنوار » إنجازا تراثيا ضخما ، حفظت به الأحاديث من الضياع ، والكتب من التلف .

ومع ظهور القرن الثالث عشر:
وقد كان قد مضى على الانقسام الداخلى بين الطائفة ، بظهور النزعة الأخبارية المتطرفة « أكثر من قرن ونصف ، بزغ نجم فقيه أهل البيت ، ومحقق أصول المذهب ، ومحيى معالم الحق ، الإمام المجدد المولى محمد باقر بن محمد أكمل ، الوحيد البهبهانى ، بعد أن كادت تعصف بمعالم الحركة الفكرية ، المحاولات التى تدعو إلى الظواهرية ، والرافضة للجهود العقلية ، مما أشرف بالفكر الشيعى على التردى فى هاوية

الجمود والتخلف ، والتأخر ، فكان لهذا الإمام الوحيد اليد البيضاء فى تدارک الأمر ، ودحر الأخبارية ، بتزييف دعاواهم ، والرد على شبهاتهم ، ففتح للفقه آفاقه الواسعة ، وعبد له مشارعه الغنية بمعين الاجتهاد المستمدة من أصول أهل البيت وفقههم .

ولم يحل القرن الرابع عشر :
إلا وعلى رأس الطائفة نجم من آل الرسول ، يحمل لواء المذهب بيد منيعة ، وهمة قعساء ، وإرادة صلبة ، وتدبير حازم ، فمنع حماها من السقوط فى مخالب الهيمنة الصليبية الكافرة متمثلة فى الإستعمار الانكليزى ، فى بدايات عصر تغلغله فى البلاد الإسلامية ، ألا وهو السيد الميرزا محمد حسن المجدد الشيرازى قدس الله سره .

وعلى مشارف القرن الخامس عشر ـ هذا الذى نعيش عقده الثانى:
طلع نجم آل محمد ، الفقيه العارف ، الحكيم العامل ، الإمام الخمينى ، ليبث الروح إلى الأمة الإسلامية ، لتستعيد كرامتها المهدورة تحت ضغوط الإستعمار المعاصر ، وليحيى فى نفوس المسلمين الشعور بالعزة التى كتبها الله لهم ، على رغم استيلاء الكفر العالمى بخيله ورجله ، على كافة الشؤون والمرافق الحيوية ، ويسجل انتصار العقيدة والإيمان على جحافل المكر والسلطة والقوة ، تحقيقا لوعد الله بالنصر للمؤمنين ، وتمهيدا لسلطان المهدى من آل محمد ، الذى يملأ الدنيا قسطا وعدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا.
فهؤلاء الذين حملوا أوسمة التجديد ، بما تمتعوا به من المزايا التى أهلتهم لذلک ، ونلخص أهم المزايا فيما يأتى:
1ـ المرجعية :
فإن الذين استحقوا هذا الوسام ، إنما كانوا من المجتهدين ، وقد أقرت الطائفة لهم بالتفوق الفقهى ، معتمدين نفس الأساليب والمناهج والمصادر التى تداولها

الأصحاب ، فانقادت لأقوالهم بالقبول والتقليد .

2ـ النهوض فى مدافعه المخالفين :

ولكل واحد من المجددين ، دور عظيم فى إحياء الإسلام والدفاع عنه ، فى مواجهة أى خطر يهدد كيانه ، إن بالحرب والجهاد ، أو بالصلح والعلم ، والسعى فى نشر الفكر الإسلامى وبثه وإظهار حقانيته وعظمته ، وإزاحة سحب الضوضاء ، وظلمات الجور عن حقائقه القيمة سعيا فى تعميق الالتزام به عند المسلمين ، ومحاولة لهداية من لاينتمى إليه .

3ـ الشجاعة والتضحية:

والمميز الهام فى حياة المجددين هو اتخاذهم المواقف الجريئة عند تعرض المذهب لهجمات عدائية من دون التوقف أو التلكؤ فى سبيل تحقيق الأهداف ، واقتحام الأهوال الجسام ، وتحمل المصاعب فى سبيل إعلاء كلمة الله ، ورفع رايته خفاقة .

4ـ الأخلاق الإسلامية العالية:

ويتمتع المعروفون بالتجديد بالأخلاقية المثالية المتفردة ، بحيث يمثل الواحد منهم القيادة الإسلامية الحقة ، بكل مواصفاتها ، وخصائصها ، فتكون أخلاقهم تجسيدا للخلق العظيم الذى رسمه الله صفة للنبى الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم .

5ـ الموسوعية :

ويشترك هؤلاء المجددون ، فى أنهم كانوا على سعة من العلم بالمعارف الإسلامية والإلهية ، باعتبارهم الأعلام الذين يشار إليهم بالبنان ، وتتوجه إليهم النفوس والأعين ، وذلک ليفوا بحاجات الأمة ، وتدارک طلباتها ورغباتها بيسر وصدق .

6ـ الحكمة والتدبير:

ومن أهم ميزات المجددين المؤهلة لهم لهذا المقام الخطير ، هو الحكمة ، والحنكة التى يتمتعون بها فى تدبير الأمور وتهيئة الأدوات الكفيلة للوصول إلى الأهداف ، والاطلاع على ما يجرى حولهم ، واتخاذ التدابير الصحيحة ، الملائمة لصالح الدين والأمة ، بالشكل الذى تتبدد معه أحابيل الأعداء ، وتؤكد موقعية العقيدة ، بين الشعوب وأمام أعين البشر .

7ـ وأخيرا:

التواجد فى الساحة ، فى مطلع القرن الهجرى الجديد ، حيث تكون الأمة بانتظار مثله ، وإن كان قد يتخلل القرن من يستحق سمة التجديد ، لوجود هذه المواصفات فيه ، إلا أن وجود المجدد على رأس القرن هو الذى يبرر إضفاء هذه السمة عليه ، ولا يعنى ذلک التقليل من أهمية دور أولئک الأعلام.

وهذه هى أهم المواصفات التى يمتاز بها الطالعون إلى قمة التجديد ، من بين سائر أعلام الأمة وعظمائها .

ولقد جمع الإمام المجدد السيد الميرزا محمد حسن الشيرازى النجف (١٢٣٠ ـ 1312 ه) كل هذه المزايا ، فاستحق بجدارة هذه السمة ، فى بداية القرن الماضى ، الرابع عشر .

1ـ فقد ثنيت له وسادة المرجعية ، ورجعت إليه الأمة بعد مرجعها الشيخ الأعظم المرتضى الأنصارى (ت ١٢٨١ ه) بإرجاع

تلامذة الشيخ إلى السيد .
وتد تركز اهتمامه فى هذا المجال على :
أ ـ تعميق البحوث العلمية ، على المستوى العالى فى الحوزة العلمية ، استمرارا فى تهيئة الكوادر الكفوءة لإدارة الحوزة فى المستقبل ، وتكوين المجتهدين الأكفاء لأداء واجب تبليغ الدين وإرشاد المسلمين بالمستويات العلمية اللائقة

ب ـ رعاية الحوزات العلمية ، ماديا ومعنويا ، بالحث على التحاق أكبر عدد ممكن من ذوى القابليات الجيدة ، لملأ المدارس بالطلاب ، واستمرار الحركة العلمية على أكمل شكل .
جـ ـ الاهتمام بعلماء البلاد والمضطلعين بأعباء الإرشاد والدعوة ، وتشكيل الحلقات للاتصال بهم ، وتسديدهم ، وإبلاغ الأوامر الضرورية إلى الناس بواسطتهم ، وخاصة فى الظروف الحرجة.
د ـ إيفاد الممثلين الأكفاء إلى الأقطار والذين عرفوا من موفديه وتلامذته هم فى الدرجة العليا من العلم والتقوى ، والعمل فى سبيل الإسلام .
2ـ وقد نهض للدفاع عن الطائفة والإسلام فى مواقفه السياسية الشجاعة ، وأما الدفاع عن الهجوم الفكرى ، والعسكرى وصد التعدى والتجاوز على الأمة ، فقد تمثل فى:
بذل الأموال الطائلة للمخالفين ، لتأليف قلوبهم ، وكف أذاهم ، وإجبارهم على الوقوف إلى جانب الحق ، ومنع أراذلهم من التجاوز على المؤمنين والتغرير بدمائهم وأعراضهم وأموالهم .
وعلى هذا الأساس هاجر السيد إلى سامراء لحماية الشيعة هناك وحماية المراقد المشرفة للإمامين العسكريين ، من التعديات التى تجاوزت الحدود فى ذلك العصر ، فكانت هجرته إلى سامراء دعما ونصرة ، وإظهارا لحسن النية تجاه المخالفين ، ولهذا الهدف بالذات عمد السيد إلى إعمار البلد بإنشاء المراكز والمشاريع الحيوية مثل الجسر والسوق ، والمدارس ، والدور.
وتمثل نهوضه للدفاع عن الطائفة بشكل آخر فى تشجيعه للعلماء من ذوى القابليات على التأليف والتصنيف فيما يدعم فكر الطائفة ويعزز من مواقعها العقيدية ضد هجمات الخصوم ، ويتضح هذا فى تقاريظه العديدة لمختلف الكتب والمؤلفات المنشورة فى ذلك العهد 3 . ـ الشجاعة والتضحية : لقد أبدى السيد المجدد شجاعة خاصة بأمثاله من

العظماء والمجددين فى مواجهة الأحداث التى عاصرها ، سواء الداخلية التى كانت تجرى فى مركز وجوده ، أم التى كانت تدور فى أطراف العالم الخارجية .
فمن المثال للأول : لما أثار النواصب الشغب فى سامراء ، وقاموا بإيذاء الطلبة المهاجرين وغيرهم من المسلمين الشيعة ، وبدأوا أعمالا استفزازية بإيعاز من الحكام والولاة العثمانيين ، فإن السيد قاوم ذلك بالصبر وتحمل المعاناة ولم يحاول أن يقاومها بالقوة والمعاملة بالمثل ، حفاظا على سمعة الوحدة بين المسلمين فكان يؤكد على أصحابه بالتحلى بالصبر والتؤدة.

ولما عرض عليه الممثل الإنكليزى التدخل فى الأمر لحمايته ضد التصرفات التركية ، رفض السيد عرضه ، وقال فى سبب رفضه : « إن كلبنا غير معلم إن أمرناه لزم ، وإن نهيناه لم يفهم ! » فذكر بالحقيقة التى ظهرت بعد ذلک ، أن الإنكليز وسائر الأجانب إنما يستغلون مثل هذه الأزمات والظروف للتدخل فى شؤون البلاد الإسلامية ، وهم يقصدون تثبيت مواقع لأقدامهم ، وتقوية مراكزهم من خلال ذلک ، وهم وإن دخلوا بعنوان المعونة للمظلوم ، لكنهم إذا تمكنوا من الدخول فى الساحة فسوف يتولون هم الظلم والاعتداء بشكل أشد ، ولا يخرجون بسهولة إلا بعد امتصاص الدماء والثروات !

ومن نماذج الثانى:

فتواه التأريخية ضد اتفاقية حكومة الشاه الإيرانى ، مع شركة إنكليزية لانحصار امتيازها للتنباک (التبغ) الإيرانى ، فقد تصدى لها السيد بفتوى تحريم استعمال « الدخانيات » بكل أشكالها ، وامتثل الشعب المسلم الإيرانى برمته أمر السيد ، حتى أفلست الشركة ، واضطر الشاه إلى فسخ الاتفاقية .
وهكذا نجد الإمام المجدد قد أنجد بلاد الإسلام والأمة الإسلامية من أن تقع تحت نير الاحتلال الاقتصادى فى ذلک العصر ، مما اعتبر وجوده سدا منيعا أمام أطماع الأجانب الكفرة .

---

4 ـ الأخلاقية العالية : لقد تمتع السيد المجدد بأخلاقية عالية ، مع عظمة مقامه ، وسعة مرجعيته ، فكان عطوفا على الفقراء واليتامى والعوائل الضعيفة ، فكان يحث وكلاءه بتفقد أحوالهم ، وصرف ما مجتمع لديهم من الحقوق الشرعية على المحتاجين فى نفس البلدان التى تجبى منها ، وامتاز بتواضعه ورقة قلبه ورأفته مما جعله محبوبا للجميع ، كبيرا فى أعين الكل حتى لقب ب) الميرزا الكبير . (

ولقد أثبت بذلک أبوته للأمة ، حيث كان يتحسس بها ينوبهم ويواسيهم ويساعدهم ، على سيرة الأئمة المعصومين عليهم السلام 5 . ـ الموسوعية ، فما أثر عن السيد من التقريرات والنقول والكتابات تدل على أنه كان على سعة تامة فى المعرفة بالعلوم والفنون ، بحيث كان يؤذى الدور المطلوب من الموسوعية فى أمثاله من المجددين ، فكان يلبى طلبات الأمة فى كل مجالاتها المعرفية .

6 ـ وأما التدبير والحنكة ، فقد ضرب السيد فى ذلک أروع الأمثلة ، لما تمتع به من ذكاء وقوة ملاحظة ، وسرعة الفهم ودقة الفكر ، ومع ذلک فقد كان يستفيد من خبرة أصحابه حيث كان له مجلس استشارى يتألف من أعيان أصحابه ، وذوى النباهة من أعوانه ، يتداولون الأمور ويبتون فيها ، ويصممون على العمل بما يليق ويناسب ، بعد موافقة السيد .

7 ـ وقد دخل القرن الرابع عشر ، والسيد المجدد الكبير هو المشار إليه بالبنان ، ولم يمض عقد إلا وقد انفردت المرجعية به ، فكان اللائق بأن يكون . » المجدد » للمذهب على رأس ذلک القرن بلا منازع . وذلک فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم .
وقد عبرت الأمة عن تقديس هذا الإمام المجدد عند وفاته باعتباره « الرمز « العظيم الذى يجب أن يحتذى به العلماء ويفتخر

به الزمن ، فشيعت جثمانه الشريف على الأكف ، من سامراء إلى مثواه الأخير فى النجف الأشرف ، طوال سبعة أيام معلنة بذلک ولاءها لممثل الأئمة ، وابنهم البار .

ص: 106

كما هب الأدباء والشعراء لرثائه ونعيه ، وهب الكتاب لترجمته وتعظيمه.

فقد ألف سماحة شيخنا العلامة الشيخ آغا بزرک الطهرانى كتابه القيم « هدية الرازى إلى المجدد الشيرازى. «

وألف سماحة العلامة الحجة الأديب الشيخ محمد على الغروى الأوردبادى كتاب « حياة الإمام المجدد الشيرازى » وكتاب « سبائک التبر فيما قيل فى الإمام الشيرازى من الشعر » فى ۶۰۰ صفحة ترجم فيه لشعرائه ومادحيه .

وجمع الشيخ على الجعفرى ـ من آل صاحب كشف الغطاء ـ عدة قصائد قيلت فى رثائه .

تغمده الله برضاه ، وأسبغ عليه نعمه وإحسانه بمنه وجلاله إنه ذو الجلال والإكرام.

ص: 107